

سورة النمل

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

سورة النمل

الوحدة الأولى: 1 - 6 الموضوع: إثبات مصدر القرآن وأهم صفات المؤمنين مقدمة سورة النمل

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ; وهي تمضي على نسقها في الأداء: مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ; وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع , ويؤكد , ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم , للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة: الإيمان بالله , وعبادته وحده , والإيمان بالآخرة , وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله , لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ; وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله , وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

وبأتي القصص لتثبيت هذه المعاني ; وتصوير عاقبة المكذبين بها , وعاقبة المؤمنين .

تأتي حلقة من قصة موسى - عليه السلام - تلي مقدمة السورة . حلقة رؤيته النار وذهابه إليها , وندائه من الملائكة الأعلى , وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . . (ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين). وكذلك شأن المشركين في مكة كان مع آيات القرآن المبين .

وتليها إشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان - عليهما السلام - ثم قصة سليمان مع النملة , ومع الهدد , ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان - وهو عبد من عباد الله - واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذي وهب سليمان ما وهب , وسخر له ما سخر . وهو الذي يملك كل شيء , وهو الذي يعلم كل شيء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذي لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تأمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله , وتبئيتهم قتله ; ثم مكر الله بالقوم , ونجاة صالح والمؤمنين معه , وتدمير ثمود مع المتأمرين: (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا). . وقد كانت قريش تتأمر على رسول الله [ص] وتبيت له , كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه , بحجة أنهم أناس يتطهرون ! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم , وتركهم للدمار: (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين). . ولقد همت قريش بإخراج الرسول [ص] وتأمرت في ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل .

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله: (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الله خير أما يشركون ?) . ثم أخذ يطوف معهم في مشاهد الكون , وفي أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق , الذي يعلم الغيب وحده , وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة , وما ينتظر المكذبين بالساعة في ذلك اليوم العظيم .

ويختم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها: (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء , وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . وقل: الحمد لله . سيربكم آياته فتعرفونها , وما ربك بغافل عما تعملون) . .

والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن , وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . . ومن ثم يجيء في مقدمة السورة: (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم). ويجيء في التعقيب (قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادرك علمهم في الآخرة) . (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ويجيء في الختام: (سيربكم آياته فتعرفونها) . . ويجيء في قصة سليمان: (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) . . وفي قول سليمان: (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) . . وفي قول الهدهد: (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) . وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة , لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن , إنما يقدر على هذه: (الذي عنده علم من الكتاب) .

وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة تظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلي الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل , حسب تتابعه الذي أسلفنا . فناخذ في استعراضها تفصيلا .

(طا . سين) . . الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة والقرآن كله . وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتابا كهذا القرآن , بعد التحدي والإفحام . .

وبلي ذلك التنبيه ذكر القرآن:

(تلك آيات القرآن وكتاب مبين) . .

والكتاب هو نفسه القرآن . وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ; واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذي أرسله إليهم سليمان . وهو عبد من عباد الله .

ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه:

(هدى وبشرى للمؤمنين) . .

وهذه أبلغ مما لو قيل: فيه هدى وبشرى للمؤمنين . فالتعبير القرآني على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين . والقرآن يمنح المؤمنين هدى في كل فج , وهدى في كل طريق . كما يطلع عليهم بالبشري في الحياتين الأولى والآخرة .

وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة . . إن القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب , أول ما يخاطب ; ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح , الذي يتلقاه بالإيمان واليقين . وكلما كان القلب ندياً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ; وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ; واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادق . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس !

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة , وهو غافل أو عجول , فلا تنض له بشيء ; وفجأة يشرق النور في قلبه , فتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال . وتصنع في حياته صنع المعجزة في تحويلها من منهج إلى منهج , ومن طريق إلى طريق .

وكل النظم والشرائع والآداب التي يتضمنها هذا القرآن , إما تقوم قبل كل شيء على الإيمان . فالذي لا يؤمن قلبه بالله , ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحي من عند الله وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذي يريده الله . الذي لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدي بالقرآن كما ينبغي ولا يستبشر بما فيه من بشارات .

إن في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان . والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فأما حين أصبح القرآن كتاباً يترنم المترنمون بآياته , فتصل إلى الآذان , ولا تتعدها إلى القلوب . فإنه لم يصنع شيئاً , ولم ينتفع به أحد . . لقد ظل كنزاً بلا مفتاح !

والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى . . إنهم هم:

(الذين يقيمون الصلاة , ويؤتون الزكاة , وهم بالآخرة هم يوقنون) . .

يقيمون الصلاة . . فيؤدونها حق أدائها , يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدي الله , شاعرة أرواحهم بأنهم في حضرة

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (5)
ذي الجلال والإكرام , مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضيء , مشغولة خواطرهم بنجاء الله ودعائه والتوجه إليه في محضره العظيم .

ويؤتون الزكاة . . فيطهرون نفوسهم من رذيلة الشح ; ويستعلون بأرواحهم على فتنه المال ; ويصلون إخوانهم في الله ببعض ما رزقهم الله ; ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها أعضاء .

وهم بالآخرة هم يوقنون . . فإذا حساب الآخرة يشغل بالهم , ويصددهم عن جموح الشهوات , ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة .

هؤلاء المؤمنون الذاكرون الله , القائمون بتكاليفه , المشفقون من حسابه وعقابه , الطامعون في رضائه وثوابه . . هؤلاء هم الذين تفتح قلوبهم للقرآن , فإذا هو هدى وبشرى . وإذا هو نور في أرواحهم , ودفعة في دمائهم , وحركة في حياتهم . وإذا هو زادهم الذي به يبلغون ; وريهم الذي به يشتفون .

وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد في صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها , فيسردون في غيهم , حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم:

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فيهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب , وهم في الآخرة هم الأخسرون . .

والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات , ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة , وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب , وهي قصيرة مهما طال . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيتها التي لا تنال ! ثم ما الذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته , وتحقيق لذاته ورغباته ; وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ; ولا يتوقع ثوابا ولا عقابا يوم يقوم الأشهاد ?

ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزينا للنفس التي لا تؤمن بالآخرة , تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء . والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها , وأن تجده حسنا جميلا ; ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني . فإذا هي تجد لذتها في أعمال أخرى وأشواق أخرى , تصغر إلى جوارها لذائد البطون والأجسام !

والله - سبحانه - هو الذي خلق النفس البشرية على هذا النحو ; وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى , مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها . ومشيتها نافذة - وفق سنته التي خلق النفس البشرية عليها - في حالتي الاهتداء والعماء . ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة: (زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) . . فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة الله في أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم . . وهذا هو معنى التزيين في هذا المقام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء: (أولئك الذين لهم سوء العذاب . وهم في الآخرة هم الأخسرون) . . سواء كان سوء العذاب لهم في الدنيا أو في الآخرة , فالخسارة المطلقة في الآخرة , محققة جزاء وفاقا على الاندفاع في سوء الأعمال .

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي ينتزل منه هذا القرآن على رسول الله [ص]: (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم). .

وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ تَارًا سَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)
ولفظاً (تلقى) يلقي ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شيء بحكمة , ويدبر كل أمر بعلم . . وتتجلى حكمته وعلمه في هذا القرآن . في منهجه , وتكاليفه , وتوجيهاته , وطريقته . وفي تنزيله في إبانه . وفي توالي أجزائه . وتناسق موضوعاته .

ثم يأخذ في القصص . وهو معرض لحكمة الله وعلمه وتديبره الخفي اللطيف .

الوحدة الثانية: 71 - 140 الموضوع: لقطات من قصة موسى

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى - عليه السلام - بعد قوله تعالى في هذه السورة: (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم). . وكأنما ليقول لرسول الله [ص] إنك لست بدعا في هذا التلقي . فها هو ذا موسى يتلقى التكليف , وينادي ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعا في التكذيب . فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله , ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلوا . (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين !

(إذ قال موسى لأهله: إنني آنست نارا . سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون).

وقد ذكر هذا الموقف في سورة طه . وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر , ومعه زوجته بنت شعيب عليه السلام . وقد ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا قوله لأهله: (سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون). وكان ذلك إلى جانب الطور . وكانت النيران توقد في البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ; فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفع , أو وجدوا الدليل على الطريق .

فَلَمَّا جَاءَهَا يُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَالْقِيَامَةَ فَكَلِّمْنَا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُ جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

(إنني آنست نارا) فقد رآها على بعد , فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق , أو أن يقبس منها ما يستدفي به أهله في قر الليل في الصحراء .

ومضى موسى - عليه السلام - إلى النار التي آنسها , ينشد خيرا , فإذا هو يتلقى النداء الأسمى:

(فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) . .

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله , وتتصل به العوالم والأفلاك ; ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض , وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير , ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله .

(فلما جاءها نودي) . . بهذا البناء للمجهول - وهو معلوم - ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم .

(نودي أن بورك من في النار ومن حولها) . .

فمن ذا كان في النار ? ومن ذا كان حولها ? إنها على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نوقدها . إنما كانت ناراً مصدرها الملاً الأعلى . ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء: (أن بورك من في النار) إيذاناً بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة ومن حولها . . وفيمن حولها موسى . . وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها , وإذنه لها بالبركة الكبرى .

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء: (وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) . .

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين , وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم . وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى - عليه السلام - إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم . ووجد موسى الخبر عند النار التي آنسها , ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ; ووجد القبس الدافئ , ولكنه كان القبس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

وكان النداء للاصطفاء ; ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه:

(وألق عصاك) . . باختصار هنا , حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هي عبرة النداء والتكليف .

(فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب) . .

فقد ألقى عصاه كما أمر ; فإذا هي تدب وتسعي , وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات " الجان " . وأدركت موسى - عليه السلام - طبيعته الانفعالية , وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببالي , وجرى بعيداً عن الحية دون أن يفكر في الرجوع ! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال .

ثم نودي موسى بالنداء العلوي المطمئن ; وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه:

يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون . .

لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسول لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف .

وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

(إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء . فإني غفور رحيم) . .

إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسنا بعد سوء , ويدعوا الظلم إلى العدل ; ويدعوا الشرك إلى الإيمان , ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم .

والآن وقد اطمأن موسى وقر , يجهزه ربه بالمعجزة الثانية , قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف:

(وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) . .

وكان هذا . وأدخل موسى يده في فتحة ثوبه - وهي جيبه - فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض , ولكن عن معجزة . ووعد ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين ; وكشف له حينئذ عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهزه ورعاه !

(في تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين) . .

ولم يعدد هنا بقية هذه الآيات التسع , التي كشف عنها في سورة الأعراف . وهي سنون الجذب , ونقص الثمرات , الطوفان , والجراد , والقمل , والضفادع , والدم . لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها . وعلى وضوحها وجحود القوم لها:

(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا: هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

هذه الآيات الكثيرة العدد , الكاشفة عن الحق , حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة , فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذا فقد قالوا عنها: إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به , ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه (ظلما وعلوا) وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: (واستيقنتها أنفسهم) . قالوا جحودا ومكابرة , لأنهم لا يريدون الإيمان , ولا يطلبون البرهان . استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم .

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن , ويستيقنون أنه الحق , ولكنهم يجحدونه , ويجحدون دعوة النبي [ص] إياهم إلى الله الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم , لما وراءها من أوضاع تسندهم , ومغانم تتوافد عليهم . وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة , التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها , ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم , وترتج في ضمائرهم . ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المرعب !

وكذلك الحق لا يجده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه . بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم , لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم , أو الخطر على أوضاعهم , أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم . فيقفون في وجه مكابرين , وهو واضح مبين .
(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . .

وعاقبة فرعون وقومه معروفة , كشف عنها القرآن في مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة , لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه , إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين .

مقدمة الوحدة

ترد هذ الإشارة إلى داود , وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى - عليهم السلام - وهم من أنبياء بني إسرائيل , في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ; ويجيء فيها: (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل: أكثر الذي هم فيه يختلفون) . .

وقصة سليمان - عليه السلام - في هذه السورة مبسطة بتوسع أكثر منها في أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدد وملكة سبا . يمهدها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطلق الطير وإعطائه من كل شيء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإنس والطير , وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب , وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله , وإدراكه أن النعمة ابتلاء , وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء .

ومناسبه ورود هذا القصص إجمالاً في هذه السورة ما سبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن , وتقرير أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل .

أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو في عدة مواضع منها ومن السورة:

التركيز في جو السورة وظلالها على العلم - كما أسلفنا في أوائلها - والإشارة الأولى في قصة داود وسليمان هي:

(ولقد آتينا داود وسليمان علماً) وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطلق الطير: (وقال:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

يا أيها الناس علمنا منطلق الطير). وعذر الهدد عن غيبته في ثنايا القصة يبدأ بقوله: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين). والذي عنده (علم) من الكتاب هو الذي يأتي بعرش الملكة في غمضة عين . .

وافتح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالتكذيب . وفي القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ , فما تلبث طويلا حتى تأتي هي وقومها مسلمين . لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذي سخر لسليمان ما سخر , وهو القاهر فوق عباده وهو رب العرش العظيم .

وفي السورة استعراض لنعم الله على العباد , وآياته في الكون , واستخلافه للناس وهم يحدون بآيات الله , ولا يشكرونه . وفي القصة نموذج للعبد الشاكر , الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه ; المتدبر لآيات الله الذي لا يغفل عنها , ولا تبطره النعمة , ولا تطغيه القوة . . فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها .

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة في القرآن , ولطريقة الأداء الفني كذلك . فهي قصة حافلة بالحركة , وبالمشاعر , وبالمشاهد , وتقطع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

فلنأخذ في عرضها بالتفصيل:

الدرس الأول: 15 - 19 وراثة سليمان لداود ومسيره مع جيشه

(ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالوا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين).

هذه هي إشارة البدء في القصة وإعلان الافتتاح . خبر تقريرى عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان - عليهما السلام نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم في سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور , ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله , فتؤوب الجبال معه والطير , لحلاوة صوته , وحرارة نبراته , واستغراقه في مناجاة ربه , وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب , وتطويع الحديد له , ليصوغ منه من هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس , مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ; بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء , وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة: (ولقد آتينا داود وسليمان علما) وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة , وإعلان قيمتها وقدرها العظيم , والحمد لله الذي فضلها بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم , وعظمة المنة به من الله على العباد , وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله , وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره , وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه , وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله , ولا منسيا له إياه . وهو بعض مننه وعطاياه

والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد , زائف عن مصدره وعن هدفه . لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس , إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار , لأنه انقطع عن مصدره , وانحرف عن وجهته , وضل طريقه إلى الله . .

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم , بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله , ولا يخشونه , ولا يحمدون له , ولا يتوجهون

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

بعلمهم إليه ? ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قبيلتي "هيروشيما" . و"ناجازاكي" وغير الخوف والقلق الذي يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء ?

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان , وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث:

(وورث سليمان داود . وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير , وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين) .

وداود أوتي الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . إنما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال !

(وورث سليمان داود) والمفهوم أنها وراثه العلم , لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس: (قال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير , وأوتينا من كل شيء) . . فيظهر ما علمه من منطق الطير ويكمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيته من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم .

(يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) . . يذيعها سليمان - عليه السلام - في الناس تحدثا بنعمة الله , وإظهارا لفضله , لا مباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليها (إن هذا لهو الفضل المبين) فضل الله الكاشف عن مصدره , الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لا يؤتي أحدا من كل شيء - بهذا التعميم - إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم - هي لغاتها ومنطقها - فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها , ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . و ذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان - عليه السلام - فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم , على طريق الظن والحدس , كما هو حال العلماء اليوم . . .

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان - عليه السلام - في هذا

الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها , وأثر من آثار الهزيمة والانهيار بالعلم البشري القليل ! وإنه لايسر شيء وأهون شيء على الله , أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ,

وَحُشِيرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ تَمَلُّهُ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

هبة لدنية منه , بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع . وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التي أتاحتها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته , وطوع أمره , كجنوده من الإنس سواء بسواء . والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير .

يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز . .

حقيقة إن سنة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه , ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ; وإن خلقه الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام . وإنها خاضعة - كحلقة مفردة - للناموس العام , الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وجدت به .

وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم , هو نسخة من الهدهد الذي وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين , منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثية خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه , فهو لا يخرج من نوعه , ليرتقي إلى نوع آخر . . وإن هذا - كما يبدو - طرف من سنة الله في الخلق , ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريد الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام , الذي لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله , يخرق المألوف المعهود للبشر , ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان , وربما كل الطائفة من الطير التي سخرت له في ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) . .

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور . يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون , أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في

القرآن . وهو أنه خلقهم من مارح من نار . أي من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) [الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن] وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالبشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية - ولا ندري كيف - وأن منهم طائفة أمنت برسول الله [ص] ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً: (قيل: أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا , يهدي إلى الرشد فأمنا به , ولن نشرك بربنا أحدا .) ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان بينون له المحاريب والتمثيل والجفان الكبيرة للطعام , ويغوصون له في البحر , ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول: إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من والطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان - إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له , إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن . . (إن إبليس كان من الجن) . . وقال في سورة "الناس": (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشرب والوسوسة للبشر في عهد سليمان . وما كانوا يزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبي يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مسخرة له .

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدد . ولو كانت جميع الطيور مسخرة له , محشورة في موكبه , ومنها جميع الهداهد , ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . ولما قال: ما لي لا أرى الهدد ? فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته , وقد يكون هو الذي سخر لسليمان من أمة الهداهد , أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سخرت لسليمان . لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الاتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم , وحشد كبير , يجمع أوله على آخره (فهم يوزعون) حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكري منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود , إشارة الحشد والتنظيم .

حتى إذا أتوا على وادي النمل . قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم , لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها , وقال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي , وأن أعمل صالحا ترضاه , وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين . .

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . في ترتيب ونظام , يجمع آخره على أوله , وتضم صفوفه , وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل , حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه (وادي النمل) قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي - ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ,

تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدي كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا عن اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال - قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم - كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمّر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا (فتبسم ضاحكا من قولها) . وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة ؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ؛ واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه:

(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) . .

(رب) . . بهذا النداء القريب المباشر المتصل . . (أوزعني) اجمعني كلي . اجمع جوارحي ومشاعري

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي ، وكلماتي وعباراتي ، وأعمالي وتوجهاتي . اجمعني كلي . اجمع طاقاتي كلها . أولها على آخرها وآخرها على أولها [وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني] لتكون كلها في شكر نعمتك علي وعلى والدي . .

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان - عليه السلام - في تلك اللحظة وبصور نوع تأثيره ، وقوة توجهه ، وارتعاشه وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياح وابتهاال .

(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) . . (وأن أعمل صالحا ترضاه) . فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله

. (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) . .

أدخلني برحمتك . . فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك في عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله - حتى بعد أن اصطفاه . خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره . . وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة

التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهي مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبي , فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ; وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخص هو سليمان وجنوده , فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المألوف . وتحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال .

الدرس الثاني: 20 - 44 مشاهد قصة سليمان والهدد وملكة سبأ

والآن نأتي إلى قصة سليمان مع الهدد وملكة سبأ وهي مقطعة إلى ستة مشاهد , بينها فجوات فنية , تدرك من المشاهد المعروضة , وتكمل جمال العرض الفني في القصة , وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجداني المقصود بعرضها في السورة ; وتحقق العبرة التي من أجلها يساق القصص في القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعاً , من الناحيتين: الفنية الجمالية , والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير , كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم , فإن القصة تحتوي دوراً لكل من الجن والإنس والطير . وبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية في القصة . . وهذه سمة فنية دقيقة في القصص القرآني .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان , وشخصية الملكة ,

وَتَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأَعَذِّبُنَّ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ
وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا بِسُجُودٍ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)

وشخصية الهدد , وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات في شتى مشاهد القصة ومواقفها .

يبدأ المشهد الأول في مشهد العرض العسكري العام لسليمان وجنوده , بعدما أتوا على وادي النمل , وبعد مقالة النملة , وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة:

وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه , أو ليأتيني بسُلطانٍ مُبِينٍ . .

فها هو ذا الملك النبي . سليمان . في موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هددهد خاص , معين في نوبته في هذا العرض . وليس هددها ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته:سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير , الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكت .

وهو يسأل عنه في صيغة مترفعة مرنة جامعة: (ما لي لا أرى الهدهد ? أم كان من الغائبين ?).

ويتضح أنه غائب , ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم , كي لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: (لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه). . ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض , إنما هو نبي . وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب , فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه , ويتبين عذره . . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: أو ليأتيني بسلطان مبين . أي حجة قوية توضح عذره , وتنفي المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول في القصة [أو لعله كان ما يزال قائما] ويحضر الهدهد . ومعه نبا عظيم , بل مفاجأة ضخمة لسليمان , ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

(فمكت غير بعيد فقال:أحطت بما لم تحط به , وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم , وأوتيت من كل شيء , ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله , وزين لهم الشيطان أعمالهم , فصدهم عن السبيل , فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض , ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم). .

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته , وتضمن إصغاء الملك له: (أحطت بما لم تحط به , وجئتك من سبأ نبأ يقين). . فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له: (أحطت بما لم تحط به)!!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ - ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة باليمن - فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة , (أوتيت من كل شيء)وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع . (ولها عرش عظيم). أي سرير ملك فخم ضخم , يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة . وذكر أنه وجد الملكة وقومها (يسجدون للشمس من دون الله)وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم , فأضلهم , فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير (الذي يخرج

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُمْ أَمْ كُنتُمْ مِنَ

الكَادِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

الخبء في السماوات والأرض). والخبء: المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض , أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض . (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب , الذي لم يقض الملك في أمره بعد ; فهو يلمح في ختام النبأ الذي يقصه , إلى الله الملك القهار , رب الجميع , صاحب العرش العظيم , الذي لا تقاس إليه عروش البشر . ذلك كي يطامن الملك من عظمتة الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية:

(الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) . .

فيلمس قلب سليمان - في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها - بهذه الإشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان , وبراعة في عرض النبأ , ويقظة إلى طبيعة موقفه , وتلميح وإيماء أريب . . فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض , وأنه هو رب العرش العظيم . . وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص , على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ; ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به . إنما يأخذ في تجربته , للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم:

(قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم , ثم تول عنهم , فانظر ماذا يرجعون).

ولا يعلن في هذا الموقف فحوى الكتاب , فيظل ما فيه مغلقاً كالكتاب نفسه , حتى يفتح ويعلن هناك . وتعرض المفاجأة الفنية في موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب , وهي تستشير الملاء من قومها في هذا الأمر الخطير:

قالت: يا أيها الملاء إنني ألقى إلي كتاب كريم . إنه من سليمان , وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلمون علي وأتوني مسلمين . .

فهي تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب , ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به - كما تقول التفاسير - لأعلنت هذه العجبية التي لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها ولا من ألقاه .

وهي تصف الكتاب بأنه (كريم). وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ: إنه من سليمان , وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين . . وهي كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة , ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته .

وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد:

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَاهِدُونَ لِي بِمَا أَنَا رَبُّ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُلُودٍ لَّآ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا , وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ; ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم , وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة , برضاهم وموافقتهم:

قالت: يا أيها الملأ أفتوني في أمري ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . .

وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريية ; فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي ألقى إليها من حيث لا تعلم , والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه (كريم) وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة , ولكنها لا تقول هذا صراحة , إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأي:

قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين .

وهنا تظهر شخصية "المرأة" من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير , والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة:

قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها , وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية فناظره بم يرجع المرسلون !

فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية [والقرية تطلق على المدينة الكبيرة] أشاعوا فيها الفساد , وأباحوا ذمارها , وانتهكوا حرمتها , وحطموا القوة المدافعة عنها , وعلى رأسها رؤساؤها ; وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه .

والهدية تلين القلب , وتعلن الود , وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا , ووسائل الدنيا إذن تجدي . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة , الذي لا يصرفه عنه مال , ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

وبسدل الستار على المشهد , ليرفع , فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال , أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

(فلما جاء سليمان قال: أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خيرا مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها , ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) . .

وفي الرد استهزاء بالمال , واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة: (أتمدونن بمال ؟) أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص ؟ (فما آتاني الله خيرا مما آتاكم) لقد آتاني من المال خيرا مما لديكم . ولقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق: العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير , فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني (بل أنتم بهديتكم تفرحون) . وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض , الذين لا يتصلون بالله , ولا يتلقون هداياه !

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد: ارجع إليهم بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) جنود لم تسخر للبشر في أي مكان , ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نضال: (ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) مدحورون مهزومون .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيثُ مَنِ الْجَنُّ أَبَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

وبسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل , ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضي الأمر , وانتهى الكلام في هذا الشأن .

ثم إذا سليمان - عليه السلام - يدرك أن هذا الرد سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء - كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية ! - ويرجح أنها ستجيب دعوته . أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها , ولا ماذا قالوا لها , ولا ماذا اعتزمت بعدها . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة , وأن سليمان يعرف هذا , وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضر عرشها , الذي خلفته في بلادها محروسا مصونا:

(قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريث من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) . .

ترى ما الذي قصد إليه سليمان - عليه السلام - من استحضر عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده ، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطنها - فيما يبدو - فإذا (الذي عنده علم من الكتاب) يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذي عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدي بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليقه ، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله: (عنده علم من الكتاب) فقال بعضهم: إنه التوراة . وقال بعضهم: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذلك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليق مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدي إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجربها على يديه أن يجربها .

وهذا الذي عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهياة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه - عليه السلام - ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال: إن اسمه أصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

قَالَ تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا يَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ يَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْتَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنَ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

(فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربي ، ليلوني أشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم).

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان - عليه السلام - وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ؛ واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف ؛ يحتاج إلى يقظة منه ليجتازها ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه . والله غني عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ،

وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله (غني) عن الشكر (كريم) يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضي سليمان - عليه السلام - في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل:

(قال: نكروا لها عرشها . ننظر أتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون).

غيروا معالمه المميزة له , لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهدي إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها , في أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور:

(فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك ? قالت: كأنه هو). .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها في مملكتها , وعليها أقفالها وحراسها . . أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ? وكيف جيء به ? ومن ذا الذي جاء به ?

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابس ? أم تراها تقول: إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات ? وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب: (قالت: كأنه هو) لا تنفي ولا تثبت , وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة في السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت: إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين). .

ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصددها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ; فقد نشأت في قوم كافرين , فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه , وهي الشمس كما جاء في أول القصة:

(وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين). .

وكان سليمان - عليه السلام - قد أعد للملكة مفاجأة أخرى , لم يكشف السياق عنها بعد , كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى :

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَيِّاقِيهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

(قيل لها: ادخلي الصرح . فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقبها ! قال: إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور , أقيمت أرضيته فوق الماء , وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها: ادخلي الصرح , حسبت أنها ستخوض تلك اللجة . فكشفت عن ساقبها ? فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها: (قال: إنه صرح ممرد من قوارير)!

ووقفت الملكة مفجوة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر , وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله , وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها (مع سليمان) لا لسليمان . ولكن (لله رب العالمين).

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه , ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة . . (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها , للكشف عن طبيعة الإيمان بالله , والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التي يصح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غلاب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله . . رب العالمين . . على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول [ص] إياهم إلى الإسلام . وفي نفوسهم الكبر أن ينفادوا إلى محمد بن عبدالله , فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هي ذي امرأة في التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوي بين الداعي والمدعويين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

الوحدة الرابعة: 45 - 53 الموضوع: لقطات من قصة صالح مع ثمود

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَعْفِفُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

في معظم المواضع في القرآن ترد قصة صالح و ثمود في سياق قصص عام مع نوح وهود , ولوط وشعيب . وأحيانا تجيء قصة إبراهيم في هذا السياق أو لا تجيء . أما في هذه السورة والتركيز فيها على قصص بني إسرائيل , فقد جاءت قصة موسى وقصة داود وسليمان . واختصرت قصة هود وقصة شعيب من السلسلة ولم تجيء قصة إبراهيم .

وفي هذه السورة لا تذكر حلقة الناقة في قصة صالح - عليه السلام - إنما يذكر تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله , ومكرهم به وهو لا يشعر , فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون , ودمرهم وقومهم أجمعين . وأنجى الذين آمنوا وكانوا

يتقون , وترك بيوت المفسدين خاوية وجعلها لمن بعدهم آية . والمشركون في مكة يمرّون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون . . .

(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله , فإذا هم فريقان يختصمون). .

يلخص رسالة صالح - عليه السلام - في حقيقة واحدة: (أن اعبدوا الله) فهذه هي القاعدة التي تركز عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل , ومع كل رسول . ومع أن كل ما حول البشر في هذا الكون , وكل ما يكمن فيهم أنفسهم , يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة الواحدة , فقد أمضت البشرية أجيالا وأزمانا لا يعلمها إلا الله , وهي تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود , أو وقفة الهزء والتكذيب . وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخالدة , وتجنح إلى شتى السبل , التي تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم .

فأما قوم صالح - ثمود - فيحكي القرآن خلاصة موقفهم بعد دعوته إياهم , وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون . فريقا يستجيب له , وفريقا يخالف عنه . وكان الفريق المعارض هو الكثرة , كما نعرف من المواضع الأخرى في القرآن عن هذه القصة .

وهنا فجوة في السورة على طريقة القصص القرآني ندرك منها أن المكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذي أنذرهم به صالح , بدلا من أن يطلبوا هدى الله ورحمته - شأنهم في هذا شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم - فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية , وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم برحمته:

قال: يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ? لو لا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم). . بدلا من أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق !

وكذلك كان قوم صالح يقولون . ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار . وبعثرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شوّما عليهم , ويتوقعون الشر من ورائهم:

(قالوا: اطيننا بك وبمن معك).

والتطير . التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقسام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام , لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا هم بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطاردا . فإن مر سانحا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر . وإن مر بارحا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر !

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

وما تدري الطير الغيب , وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول . ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر

عليه . فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لا تقف عند حد , ولا تخضع لعقل , ولا تنتهي إلى اطمئنان وبقين

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله , ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه , لأنهم - بزعمهم - قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين ! - هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه . . نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم 13 , وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم , وعلى إشعال 0 أكثر من لفافتين يعود ثقاب واحد . . . إلى آخر هذه الخرافات الساذجة . ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة . وهي جوعتها إلى الإيمان , وعدم استغنائها عنه , وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان ; وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام , لأنه أكبر من الطاقة البشرية , ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان , زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض , التي زود على قدرها بالموهب والطاقات !

فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة , الضالة في تيه الوهم والخرافة , ردهم صالح إلى نور اليقين , وإلى حقيقته الواضحة , البعيدة عن الضباب والظلام:

(قال: طائركم عند الله).

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله . والله قد سن سننا وأمر الناس بأمر , وبين لهم الطريق المستتير . فمن اتبع سنة الله , وسار على هداه , فهناك الخير , بدون حاجة إلى زجر الطير . ومن انحرف عن السنة , وحاد عن السواء , فهناك الشر , بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير .

(بل أنتم قوم تفتنون).

تفتنون بنعمة الله , وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر . فاليقظة وتدبير السنن , وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية . لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء .

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور . وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم . وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله , وأن ليس شيء مما يقع عبثاً أو مصادفة . . وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس . وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله , وبخالق الكون ومدبره , وبالنواميس التي تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم .

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التي لم تفسد , ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه . وكان من قوم صالح , من كبرائهم , تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للإصلاح والإصلاح . فراحوا ياتمرون به , ويدبرون له ولأهله في الظلام . .

(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا: تقاسموا بالله لنبيته وأهله , ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله . وإنا لصادقون).

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد , لم يعد بها متسع للصالح والإصلاح , فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته , وبيتوا فيما بينهم أمرا . ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَانجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)
الشر المنكر الذي يبيتونه , وهو قتل صالح وأهله بياتا , وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله !

وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: (تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله) ولا حضرنا مقتله . . (وإننا لصادقون). . فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام !

وهو احتيال سطحي وحيلة ساذجة . ولكنهم يطمنون أنفسهم بها , ويبررون كذبهم , الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله . نعم من العجب أن يحرض مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين ! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات , وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان , الذي يرسم لها الطريق المستقيم .

كذلك دبوا . وكذلك مكروا . . ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه , ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكربهم وهم لا يشعرون:

(ومكروا مكرا , ومكربنا مكرا . وهم لا يشعرون) . .

وأي مكر من مكر ? وأي تدبير من تدبير ? وأي قوة من قوة ?

وكم ذا يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة , ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل , والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:

(فانظر كيف كان عاقبة مكربهم . أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) . .

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك , وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية . وقد كانوا منذ لحظة واحدة , في الآية السابقة من السورة , يدبرون ويمكرون , ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون !

وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق . لتظهر المباغثة الحاسمة القاضية . مباغثة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ; ومباغثة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكربهم .

(إن في ذلك لآية لقوم يعلمون) . . والعلم هو الذي عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث

وبعد مشهد المباغثة يجيء ذكر نجاه المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . .

(وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون). .

والذي يخاف الله يقيه سبحانه من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين . كما جاء في حديث قدسي جليل .

الوحدة الخامسة: 54 - 58 الموضوع: لقطات من قصة لوط مع قومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْقَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة ، تبرز هم قوم لوط بإخراجه ، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفق وتعارف وعلانية . فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال ، وترك النساء ، على غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها . بل عامة الأحياء .

وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية . فقد يشذ أفراد ، لأسباب مرضية نفسية أو لملازمات وقتية ؛ فيميل الذكور لإتيان الذكور ؛ وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء ، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي ، محرومين من الاتصال بالنساء . . أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره ، مع وجود النساء وتيسر الزواج ، فهذا هو الحادث الغريب حقا في تاريخ الجماعات البشرية !

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر ، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة الزواج . فقال: (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون). فجعل الأحياء كلها أزواجا سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس في شتى المخلوقات . والتزاوج يبدو أصيلا في بناء الكون كله - فضلا على الأحياء - فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب والكثرونات . أي من كهربائية وإيجابية وأخرى سلبية . وهي وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعا كما يبدو حتى الآن .

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أن الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج . حتى التي لا يوجد لها من جنسها ذكر وأنثى تجتمع خلايا التذكير والتأنيث في أحادها ، وتتكاثر بهذا الاجتماع .

ولما كان التزاوج هو قاعدة الحياة في ناموس الخلق ، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة ، التي لا تحتاج إلى تعليم ، ولا تتوقف على تفكير . وذلك كي تسير الحياة في طريقها بدافع الفطرة الأصيل . والأحياء يجدون لذتهم في تحقيق مطالب الفطرة . والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة في كيانهم بلا وعي منهم ولا توجيه من غيرهم . وقد جعل الله تركيب أعضاء الأنثى وأعضاء الذكر ، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة الفطرية من اجتماعهما . ولم يجعل هذا في أعضاء الذكربين وميولهما .

ومن ثم يكون عجيبا أن تنحرف الفطرة انحرافا جماعيا كما حدث في قوم لوط ، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم .

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب مما يفعلون !

(ولوطا إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون). .

عجب في عبارته الأولى من إتيانهم هذه الفاحشة , وهم يبصرون الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نسق الفطرة , وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء . . وصرح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة . ومجرد الكشف عنها يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية , ولمألوف الفطرة جميعا . ثم دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمعنى فقدان العلم . والجهل بمعنى السفه والحمق . وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض . فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء , ولا يعلم شيئا أصلا . والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفبه أحمق معتد على جميع الحقوق !

فماذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف , وهذا التوجيه إلى وحي الفطرة السليمة ?

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ (56)
فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ (58)

كان جوابهم في اختصار أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته - إلا امرأته - بحجة أنهم أناس يتطهرون !

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم ناس يتطهرون .

وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر . وقد يكون إنكارا عليه أن يسمى هذا تطهرا , فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة . وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!

على أية حال لقد هموا همهم , وحزموا أمرهم . وأراد الله غير ما كانوا يريدون:

فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . .

ولا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته في السور الأخرى . فنكتفي نحن بهذا مجازة للسياق . ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر , وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب . . والله أعلم بقوله ومراده , وأعلم بسننه وتدييره . وإن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير .

انتهى الجزء التاسع عشر و يليه الجزء العشرون

مبدوءاً بقوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)
الوحدة السادسة: 59 - 93 الموضوع: جولات من عالم الغيب والشهادة على حقائق
العقيدة مقدمة

هذا الدرس ختام سورة النمل , بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود
وسليمان وصالح ولوط - عليهم السلام - وهذا الختام متصل بمطلع السورة في
الموضوع . والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام . كل قصة تؤدي جانبا من
جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله , وبالسلام على من اصطفاهم من عباده , من الأنبياء والرسل ,
ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة .
جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس , وأطواء الغيب ; وفي أشراط الساعة ومشاهد
القيامة , وأهوال الحشر , التي يفرع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء
الله .

في هذه الجولة يفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس , لا يملكون
إنكار وجودها , ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة , تأخذ عليهم أقطار الحجة , وأقطار
المشاعر ; وهو يسألهم أسئلة متلاحقة: من خلق السماوات والأرض ? من أنزل من
السماوات ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ? من جعل الأرض قرارا , وجعل خلالها أنهارا ,
وجعل لها رواسي , وجعل بين البحرين حاجزا ? من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف
السوء ? من يجعلكم خلفاء الأرض ? من يهديكم في ظلمات البر والبحر ? من يرسل
الرياح بشرابين يدي رحمته ? من يبدأ الخلق ثم يعيده ? من يرزقكم من السماء والأرض
? وفي كل مرة يقرعهم: أإله مع الله ? وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا
يملكون أن يقولوا: إن إلهنا مع الله يفعل من هذا كله شيئا ; وهم مع هذا يعبدون أربابا من
دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تقتحم القلوب , لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة
الوجود من حولهم , أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم . . يستعرض تكذيبهم
بالآخرة , وتخبطهم في أمرها , ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين
كانوا مثلهم يكذبون وتخبطون .

وبخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع بهم في
ومضة خاطفة إلى الأرض , ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هذا ويرجها
رجا . . .

وفي نهاية الجولة يجيء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقا رهيبا . . ينفذ رسول الله [ص]
يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعيد , المكذبين بالآخرة , وقد وجه قلوبهم
إلى مشاهد الكون وأهوال الحشر , وعواقب الطائعين والعصاة - ويتركهم إلى مصيرهم
الذي يختارون ; ويحدد منهجه ووسيلته ولمن شاء أن يختار:

إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . . .

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذي يستأهل الحمد وحده ؛ ويكلهم إلى الله يريهم آياته ؛ ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن:

(وقل: الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون) . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

الدرس الأول: 59 - 64 أدلة كونية حياتية على الوحدانية

قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آله خير أم ما يشركون ؟ . .

يأمر الله رسوله [ص] أن يقول الكلمة التي تليق أن يفتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك: (قل: الحمد لله) . المستحق للحمد من عباده على آله ، وفي أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذي يختاره ، ومنهجه الذي يرضاه . (وسلام على عباده الذين اصطفى) لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، وبيان منهجه .

وبعد هذا الإفتتاح يأخذ في توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله ، مبتدئاً بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة:

آله خير أم ما يشركون ؟ . .

وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقي أن يكون شبيهاً بالله - سبحانه - فضلاً على أن يكون خيراً منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد ، أو أن يطلب عنه جواب !

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ، ومن مشاهدته التي يرونها بأعينهم:

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (62) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (64)

(أم من خلق السماوات والأرض , وأنزل لكم من السماء ماء , فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ? إليه مع الله ? بل هم قوم يعدلون) . .

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها , ولا يملك كذلك أن يدعي أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها . . وهي أصنام أو أوثان , أو ملائكة وشياطين , أو شمس أو قمر . . فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه , مخلوق بذاته , كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهاافت في القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض , والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها , كفيلا بإلزام الحجة , ودحض الشرك , وإفحام المشركين . وما يزال هذا السؤال قائما فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد , ويتضح فيه التدبير , ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة , ملجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد , الذي تتضح وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تصميمًا واحدًا متناسقًا لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة . إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير .

(أم من خلق السماوات والأرض) . . (وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ?) . .

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر , فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذي يسمح بنزول المطر , بهذا القدر , الذي توجد به الحياة , على النحو الذي وجدت به , فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة , وأن تتوافق المصادفات بهذا الترتيب الدقيق , وبهذا التقدير المضبوط . المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصيص الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: (وأنزل لكم . . .) والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس وفق حاجة حياتهم , منظورا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون:

(فأنبئنا به حدائق ذات بهجة) . .

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية . وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وان تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث . فضلا على معجزة الحياة النامية في الشجر - وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر - : (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) وسر الحياة كان وما يزال مستغلقا على الناس . سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان . فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول: كيف جاءت هذه الحياة , ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان . ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور .

وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير , يهجم عليهم بسؤال:

(إله مع الله?) . .

ولا مجال لمثل هذا الادعاء ; ولا مفر من الإقرار والإذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبا , وهم يسوونآلهتهم المدعاة بالله , فيعبدونها عبادة الله: (بل هم قوم يعدلون) . .

ويعدلون . إما أن يكون معناها يسوون . أي يسوون آلهتهم بالله في العبادة . وإما أن يكون معناها:يحيدون . أي يحيدون عن الحق الواضح المبين . بإشراك أحد مع الله في العبادة ; وهو وحده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق . وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق !

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى , يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى:

(أم من جعل الأرض قرارا , وجعل خلالها أنهارا , وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا?) . .

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض . لقد جعلها قرارا للحياة , مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعها من الشمس والقمر ; أو تغير شكلها , أو تغير حجمها , أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها , أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها , أو سرعة دورتها حول الشمس , أو سرعة دورة القمر حولها . . . إلى آخر هذه الملابس الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة , وأن تتناسق كلها هذا التناسق . . لو تغير شيء من هذا كله أدنى تغيير , لما كانت الأرض قرارا صالحا للحياة .

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى: (أم من جعل الأرض قرارا?) كل هذه العجائب . ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرا صالحا للحياة على وجه الإجمال ; ولا يملكون أن يدعوا أن أحدا من آلهتهم كان له شرك في خلق الأرض على هذا المنوال . وهذا يكفي . ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحا للأجيال وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال . وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول , على توالي الأزمان !

(أم من جعل الأرض قرارا . وجعل خلالها أنهارا?) . .

والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة , وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب , وإلى الشمال وإلى الجنوب , تحمل معها الخصب والحياة والنماء . والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض . والله الذي خلق هذا الكون هو الذي قدر في تصميمه إمكان تكون السحب , ونزول المطر , وجريان الأنهار . وما يملك أحد أن يقول:إن أحدا سوى الخالق المدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو ; وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون . فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ? (إله مع الله?) .

(وجعل لها رواسي) . .

والرواسي:الجبال . وهي ثابتة مستقرة على الأرض . وهي في الغالب منابع الأنهار , حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان ; وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة .

والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار .

(وجعل بين البحرين حاجزا) . .

البحر الملح الاجاج , والنهر العذب الفرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء . والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي , الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار , ولكن مجرى النهر يقيم مستقلا لا يطغى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائما من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر . إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميذا لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون , وتصميمه على هذا النحو الدقيق .

فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ (أإله مع الله ؟) . .

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى . ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق . . (بل أكثرهم لا يعلمون) . .

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملي الصنعة فيها والتنسيق , وتدير السنة فيها والناموس . ولأن التركيز في السورة كلها على العلم [كما ذكرنا في تلخيص السورة في الجزء الماضي] .

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم:

(أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء , ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) . .

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم , وواقع أحوالهم .

فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعو له ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة , وتشتد الخنقة , وتتخاذل القوى , وتتهاوى الأسناد ; وينظر الإنسان حوالبه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصر وأسباب الخلاص . لا قوته , ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخرى ; وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى . . في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة , ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء . فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء , ويرده إلى الأمن والسلامة , وينجييه من الضيقة الآخذة بالخناق .

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء , وفترات الغفلة . يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة , ويضطرهم الكرب , فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة , ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم , ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض , وإنزال الماء من السماء , وإنبات الحدائق البهيجة , وجعل الأرض قرارا , والجبال رواسي , وإجراء الأنهار , والحاجز بين البحرين . فالتجاء المضطر إلى الله , واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء .

ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم: (ويجعلكم خلفاء الأرض).. .

فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ? أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولا . ثم جعلهم قرنا بعد قرن , وجيلا بعد جيل , يخلف بعضهم بعضا في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء ?

أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض , وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها , وتعددهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . النواميس التي تجعل الأرض لهم قرارا ; والتي تنظم الكون كله متناسقا بعضه مع بعض بحيث تنهيا للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختلف شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلا .

وأخيرا أليس هو الله الذي قدر الموت والحياة , واستخلف جيلا بعد جيل ; ولو عاش الأولون لصاقت الأرض بهم وبالآخرين ; ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير , لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات , وتجدد أنماط الحياة , يغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا في عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض ! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الآفاق . فمن الذي حقق وجودها وأنشأها ? من ?

(أإله مع الله ?) .. .

إنهم لينسون ويغفلون هذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس , مشهودة في واقع الحياة:

(قليلا ما تذكرون)!

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله صلة الفطرة الأولى . ولما غفل عن ربه , ولا أشرك به أحدا .

ثم يمضي السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة في حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب , ومشاهداتهم التي لا تنكر:

(أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر , ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ? أإله مع الله ? تعالى الله عما يشركون !) .. .

والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم ; ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم .. ويهتدون .. فمن يهديهم ? من

أودع كيانه تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للإنتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟

من ؟ إله مع الله ؟

(ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟) . .

والرياح مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكوني الأول ، الذي يسمح بجرياتها على النحو الذي تجري به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مباشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة .

فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من ؟

(إله مع الله ؟) . . (تعالى الله عما يشركون !)

وبختم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدي والإفحام :

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ إله مع الله ؟ قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . .

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحدا تعليها بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجىء للإقرار بوجوده ؛ وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته ؛ فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون . ولكن الإقرار ببداء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجىء كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء ، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانا بعض الجزاء . فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء . وهذا لا يتم في الحياة الدنيا . فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال . . أما لماذا لم يتم في هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء ؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعه . وسر الصنعة عند الصانع . وهو غيب من غيبه الذي لم يطلع عليه أحدا !

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبديء الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال: أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ . . (إله مع الله ؟) . .

والرزق من السماء والأرض متصل بالبداء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق

; ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات ; وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء , وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ; ويكشف عن شيء منها لعباده أنا بعد أن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا: الضوء والحرارة والمطر وسائر ما يبسرهم الله لهم من القوى والطاقات . ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم - وهو من السماء بمدلولها المعنوي , الذي يتردد كثيرا في القرآن والسنة ; وهو معنى الارتفاع والاستعلاء .

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة , لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد . وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا . . وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة . فهو في الدنيا للحياة , وهو في الآخرة للجزاء . . وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب .

والبدء والإعادة حقيقة والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق , فيردهم القرآن إليها في تحد وإفحام:

(إله مع الله ?) . . (قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . .

وإنهم ليعجزون عن البرهان , كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ; فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذي يأخذ به القلوب ; ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقتها الواضح الواصل البسيط ; ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيَّدَا كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67)

مركوز فيها من الحقائق التي تغشيها الغفلة والنسيان , وبحجبها الجحود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس ; والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد , الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي , وفشا فيما يسمى علم التوحيد , أو علم الكلام !

الدرس الثاني: 65 - 81 علم الغيب خاص بالله وطبيعة علم القرآن

وبعد هذه الجولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوجدانية ونفي الشرك . يأخذ معهم في جولة أخرى عن الغيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر , وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله , يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته ; ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد مواعده:

قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله , وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادرك علمهم في الآخرة , بل هم في شك منها , بل هم منها عميون . وقال الذين كفروا: إذا كنا ترابا وأبائنا إنا لمخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل . إن هذا إلا

أساطير الأولين ! قل:سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? قل:عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون . وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون . وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين .

والإيمان بالبعث والحشر , وبالحساب والجزاء , عنصر أصيل في العقيدة , لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب , يكمل فيه الجزاء , ويتناسق فيه العمل والأجر , ويتعلق به القلب , وتحسب حسابه النفس , ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفا عجيبا من قضية البعث والدار الآخرة , وعلى بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثا بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة , وتستمرىء الجحود والمعصية , وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد موعدها أو يكذبوا بالنذر , ويحسبونها أساطير , سبق تكرارها ولم تحقق أبدا !

فهنا يقرر أن الغيب من أمر الله , وأن علمهم عن الآخرة منته محدود:

(قل:لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله , وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادرك علمهم في الآخرة , بل هم في شك منها , بل هم منها عمون). .

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب , لا ينفذ إليه علمه , ولا يعرف مما وراء الستر المسدل , إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وكان الخير في هذا الذي أراده الله , فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيرا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة في الأرض , وما ينهض به بهذا التكليف الضخم . . ولا زيادة . . وانكشف ستر الغيب له ليس مما يعينه في هذه المهمة . بل إن انطباق أهديه دونه لمما يثير تطلعه إلى المعرفة , فينقب ويبحث . وفي الطريق يخرج المخبوء في باطن الأرض , وجوف البحر , وأقطار الفضاء ; ويهتدي إلى نواميس الكون والقوى الكامنة فيه , والأسرار المودعة في كيانه لخير البشر , ويحلل في مادة الأرض ويركب , ويعدل في تكوينها وأشكالها , ويتدع في أنماط الحياة ونماذجها . حتى يؤدي دوره كاملا في عمارة هذه الأرض , وبحقق وعد الله بخلافة هذا المخلوق الإنساني فيها .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله , ولكن كل من في السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم , فيبقى سره عند الله دون سواه .

(قل:لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله). .

وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدع , ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة .

وبعد هذا التعميم في أمر الغيب يخصص في أمر الآخرة لأنها القضية التي عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد:

(وما يشعرون أيا ن يعثون).. .

ينفي عنهم العلم بموعد البعث في أغمض صورته وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا , ولا يشعرون به حين يقترب شعورا . فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحد يعلمه في السماوات ولا في الأرض . . ثم يضرب عن هذا ليتحدث في موقفهم هم من الآخرة , ومدى علمهم بحقيقتها:

(بل ادرك علمهم في الآخرة).. .

فانتهى إلى حدوده , وقصر عن الوصول إليها , ووقف دونها لا يبلغها .

(بل هم في شك منها).. .

لا يستيقنون بمجيئها , بله أن يعرفوا مواعدها , وينتظروا وقوعها .

(بل هم منها عمون).. .

بل هم منها في عمى , لا يبصرون من أمرها شيئا , ولا يدركون من طبيعتها شيئا . . وهذه أشد بعدا عن الثانية وعن الأولى:

وقال الذين كفروا: إذا كنا ترابا وآبأؤنا إنا لمخرجون ? . .

وهذه كانت العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائما: إذا فارقنا الحياة , ورمت أجسادنا وتناثرت في القبور , وصارت ترابا . . إذا وقع هذا كله - وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة شاذة - إذا وقع هذا لنا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى , وأن نخرج من الأرض التي اختلط رفاتنا بترابها فصار ترابا ?

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئا . ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى . فلقد كانت مفترقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواز الفضاء . فمنها ما جاء من تربة الأرض , ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء , ومنها ما قدم من الشمس البعيدة , ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان , ومنها ما انبعث من جسد رم وتبخرت بعض عناصره في الهواء ! . . ثم تمثلت هذه الخلايا والذرات في طعام يأكلونه , وشراب يشربونه , وهواء يتنفسونه , وشعاع يستدفئون به . . ثم إذا هذا الشتيت الذي لا يعلم عدده إلا الله , ولا يحصي مصادره إلا الله , يتجمع في هيكل إنسان ; وهو ينمو من بويضة عالقة في رحم , حتى يصير جسدا مسجى في كفن . . فهؤلاء في خلقتهم أول مرة , فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة !

لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف !

هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار:

(لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين).

فهم كانوا يعرفون أن الرسل من قبل قد أذروا آباءهم بالبعث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة , ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ; فينبون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين:إنها أساطير الأولين يرونها محمد [ص] غافلين أن للساعة موعدها الذي لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم , إنما يجيء في الوقت المعلوم لله , المجهول للعباد في السماوات والأرض سواء . ولقد قال رسول الله [ص] لجبريل - عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " .

وهنا يلمس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الذين كذبوا قبلهم بالوعد ويسميه المجرمين:

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين).

وفي هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم , فالجيل من البشر ليس مقطوعا من شجرة البشرية ; وهو محكوم بالسنن المتحكمة فيها ; وما حدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ; فإن السنن لا تحيد ولا تحابي . والسير في الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة , وفيها تفتيح لنواذ مضيئة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحببها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة , وتدبر خطواتها وحلقاتها , ليعيشوا حياة متصلة الأوشاح متسعة الآفاق , غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة .

وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله [ص] أن ينفذ يديه من أمرهم , ويدعهم لمصيرهم , الذي وجههم إلى نطائره , وألا يضيق صدره بمكرهم , فإنهم لن يضروه شيئا , وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه تجاههم وأبلغهم وبصرهم .

(ولا تحزن عليهم . ولا تكن في ضيق مما يمكرون) . .

وهذا النص يصور حساسية قلبه [ص] وحزنه على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم , ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالذعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير .

ثم يمضي في سرد مقولاتهم عن قضية البعث , واستهانتهم بالوعد بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة:

(ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) . .

كانوا يقولون هذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم , ومصارعهم التي يمرون عليها مصبحين كقرى لوط , وأثار ثمود في الحجر , وأثار عاد في الأحقاف , ومساكن سبا بعد

سيل العرم . . كانوا يقولون مستهزئين: (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به ؟ إن كنتم صادقين فهاتوه , أو خبرونا بموعده على التحديد !

وهنا يجيء الرد يلقي ظلال الهول المتربص , وظلال التهكم المنذر في كلمات قصار:

(قل: عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون). .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

بذلك يثير في قلوبهم الخوف والقلق من شبح العذاب . فقد يكون وراءهم - رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة - وهم لا يشعرون . وهم في غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! فيالها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهترون !

ومن يدري . إن الغيب لمحجوب . وإن الستار لمسبل . فما يدري أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات ما يذهل وما يهول ! إنما العاقل من يحذر , ومن يتهيا ويستعد في كل لحظة لما وراء الستر المسدول !

(وإن ربك لذو فضل على الناس , ولكن أكثرهم لا يشكرون). .

وإن فضله ليتجلى في إمهالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون , عسى أن يتوبوا إليه ويتوبوا إلى الطريق المستقيم . (ولكن أكثرهم لا يشكرون) على هذا الفضل , إنما يستهزئون ويستعجلون , أو يسدرون في غيهم ولا يتدبرون .

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون). .

وهو يمهلهم ويؤخر العذاب عنهم , مع علمه بما تكنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإمهال عن علم , والإمهال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكن صدورهم وما يعلنون .

ويختم هذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الكامل , الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض:

و ما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين . .

ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض , وراء كل غائبة . من شيء , ومن سر , ومن قوة , ومن خبر , وهي مفيدة بعلم الله , لا تند منها شاردة , ولا تغيب منها غائبة . والتركيز في السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة , وهذه واحدة منها تختم بها هذه الجولة .

وبمناسبة الحديث عن علم الله المطلق يذكر ما ورد في القرآن من فصل الخطاب فيما اختلف عليه بنو إسرائيل , بوصفه طرفا من علم الله المستيقن , ونموذجا من فضل الله

وقضائه بين المختلفين . ليكون هذا تعزية لرسوله [ص] وليدعهم لله يفصل بينه وبينهم بقضائه الأخير:

إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون , وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين , وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون . .

ولقد اختلف النصارى في المسيح - عليه السلام - وفي أمه مريم .

قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض , وقالت جماعة: إن الأب والإبن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة , الأب والإبن وروح القدس [والإبن هو عيسى] فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنسانا وولد منها في صورة يسوع ! وجماعة قالت: إن الإبن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم , ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما ! وقرر مجمع نيقية سنة 325 ميلادية , ومجمع القسطنطينية سنة 381 بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت , وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة 589 بأن روح القدس منبثق من الإبن أيضا . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلنا مختلفتين . . . فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل

وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)
بين هؤلاء جميعا . وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألهاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر . . (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل). وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون .

واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال: إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال: إن يهوذا أحد حواريه الذي خانته ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب . ومنهم من قال: ألقي شبهه على الحوارى سيمون وأخذ به . . وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وقال: (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك . .) وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف .

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية ; فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس , والعين بالعين , والأنف بالأنف , والأذن بالأذن , والسن بالسن , والجروح قصاص). . .

وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم , مجردا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم , مطهرا من الأقدار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء , والتي لم يكذبها من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفا ! . . إبراهيم - بزعمهم - قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين , وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق

السرقه والحيلة والكذب ; وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو ! ولوط - بزعمهم - أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادت ! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده , فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز - بزعمهم - بامرأته ! وسليمان مال إلى عبادة [بغل] بزعمهم . مجارة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها !

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة , كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وهذا القرآن المهيم على الكتب قبله الذي يفصل في خلافات القوم فيها , ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون , وهو الحكم الفصل بين المتجادلين !
(وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) . .

(هدى) يقبهم من الاختلاف والضلال , ويوحد المنهج , ويعين الطريق , ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد , (ورحمة) يرحمهم من الشك والقلق والحيرة , والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال ; ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه , ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم , وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل .

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس , وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة ; حيث تجدها متنسقة مع الكون الذي تعيش فيه , متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون - في يسر وبساطة , بلا تكلف ولا تعمل . ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى ; لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديه متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به , وعرفت أن ناموسها هو ناموسه . وهذا التناسق بين النفس والكون , وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة , والسلام بين

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

البشر , وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار . . وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها . .

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة . . يقرر لرسول الله [ص] أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه , ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له . حكمه القوي المبني على العلم اليقين:

(فتوكل على الله إنك على الحق المبين) . .

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض , واختلاف الليل والنهار . سنة لا تتخلف . . قد تبطئ . تبطئ لحكمة يعلمها الله , وتحقق بها غايات يقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولو عد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر .

ويمضي في تسليية الرسول [ص] وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان , وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن . . يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله ; فهو لم يقصر في دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي آذانهم فتتحرك قلوبهم , فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم , وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان , فما له فيهم حيلة , وليس له إلى قلوبهم سبيل ; ولاضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل:

(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين , وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون). .

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب , وخمود الروح , وبلادة الحس , وهمود الشعور . فيخرجهم مرة في صورة الموتى , والرسول [ص] يدعو , وهم لا يسمعون الدعاء , لأن الموتى لا يشعرون ! وبخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي , لأنهم لا يسمعون ! وبخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ; لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون ! وتترأى هذه الصور المجسمة المتحركة , فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور !

وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء , وهم السامعون , وهم المبصرون .

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون). .

إنما تسمع الذين تهيات قلوبهم لتلقي آيات الله , بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم . وعمل الرسول [ص] هو أن يسمعهم , فيدلهم على آيات الله , فيستسلمون لتوهم ولحظتهم (فهم مسلمون).

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ; فما يكاد القلب السليم يعرفه , حتى يستسلم له , فلا يشاق فيه . وهكذا يصور القرآن تلك القلوب , القابلة للهدى , المستعدة للاستماع , التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله , فتؤمن لها وتستجيب .

الدرس الثالث: 82 - 90 من مشاهد القيامة

بعد ذلك يجول بهم جولة أخرى في أشرط الساعة , وبعض مشاهدتها , قبل الإيقاع الأخير الذي يختم به السورة . . جولة يذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهدا للحشر والتبكيك للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آيتي الليل والنهار

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

المعروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يردد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ في الصور , ويوم تسير الجبال وتمرر السحاب ; ويعرض عليهم مشهد المحسنين أمينين من ذلك الفزع , والمسيئين كبت وجوههم في النار:

(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم , أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون).

ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال: أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .

(ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .)

(ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله , وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء , إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها , وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) .

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح ; وليس في هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحا عن أوصافها , فما يعني شيئا أن يكون طولها ستين ذراعا , وأن تكون ذات زغب وريش وحافر , وأن يكون لها لحية ! وأن يكون رأسها رأس ثور , وعينها عين خنزير , وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل , وعنقها عنق نعامة , وصدرها صدر أسد , ولونها لون نمر , وخاصرتها خاصرة هر , وذنبها ذنب كبش , وقوائمها قوائم بعير . . . إلخ هذه الأوصاف التي افتن فيها المفسرون !

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة , وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة 21 وحق القول على الباقيين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تتكلم , أو لا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون , ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله , ولا يصدقون باليوم الموعود .

ومما يلاحظ أن المشاهد في سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطيور والجن وسليمان عليه السلام . فجاء ذكر (الدابة) وتكليمها الناس متناسقا مع مشاهد السورة وجوها , محققا لتناسق التصوير في القرآن , وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها المشهد العام .

ويعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة , إلى مشهد الحشر !

(ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) . .

والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين (فهم يوزعون) يساقون أولهم على آخرهم , حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار .

حتى إذا جاءوا قال: أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ? أم ماذا كنتم تعملون ? .

والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب . فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثاني فملؤه التهكم , وله في لغة التخاطب نظائر: أكذبتكم ? أم كنتم تعملون ماذا ? فما لكم عمل ظاهر يقال: إنكم قضيتم حياتكم فيه , إلا

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَفَرَعٌ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87)

هذا التأكيد المستنكر الذي ما كان ينبغي أن يكون . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم , كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه:

(ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) . .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم في الدنيا , وهم واجمون صامتون ! ذلك على حين نطقت البداية قبيل ذلك . وهما هم الناس لا ينطقون ! وذلك من بدائع التقابل في التعبير القرآني , وفي آيات الله التي يعبر عنها هذا القرآن .

ونسق العرض في هذه الجولة ذو طابع خاص , هو المزوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة , والا انتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا ينتقل من مشهد المكذبين بآيات الله , المبهوتين في ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا , كان جديرا أن يوقظ وجدانهم , ويدعوهم إلى التدبر في نظام الكون وظواهره , ويلقي في روعهم أن هناك إلها يرعاهم , وبهية لهم أسباب الحياة والراحة , ويخلق الكون مناسبا لحياتهم لا مقاوما لها ولا حربا عليها ولا معارضا لوجودها أو استمرارها:

ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ? إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

ومشهد الليل الساكن , ومشهد النهار المبصر , خليقان أن يوقظا في الإنسان وجدانا دينيا يفتح إلى الاتصال بالله , الذي يقرب الليل والنهار , وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان , ولكنهم لا يؤمنون .

ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهارا لانعدمت الحياة على وجه الأرض ; وكذلك لو كان الدهر كله ليلا . لا بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات , ولتجمد في الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة . ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات . ولكنهم لا يؤمنون .

ومن آيتي الليل والنهار في الأرض , وحياتهم الآمنة المكفولة في ظل هذا النظام الكوني الدقيق يعبر بهم في ومضة إلى يوم النفخ في الصور , وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض ومن فيهن من الخلائق إلا من شاء الله . وما فيه من تسيير للجبال

الرواسي التي كانت علامة الاستقرار ; وما ينتهي إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والخير , ومن عقاب بالفزع والكب في النار:

(ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ; وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة , وهي تمر مر السحاب , صنع الله الذي أتقن كل شيء , إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها , وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون). .

والصور البوق ينفخ فيه . وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض - إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . قيل هم الشهداء . . وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع (وكل أتوه داخرين)أذلاء مستسلمين .

وبصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك , وتضطرب دورتها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية , وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَئِنْ أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِيَّاهُ خَيْرٌ يَمَا تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

يتناسق مع ظل الفزع , ويتجلى الفزع فيه ; وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين , مفزوعة مع المفزوعين , هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار ! (صنع الله الذي أتقن كل شيء).

سبحانه ! يتجلى إتقان صنعته في كل شيء في هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ولا ثغرة ولا نقص , ولا تفاوت ولا نسيان . ويتدبر المتدبر كل آثار الصنعة المعجزة , فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . في الصغير والكبير , والجليل والحقير . فكل شيء بتدبير وتقدير , يدير الرؤوس التي تتابعه وتتملاه .

(إنه خبير بما تفعلون). .

وهذا يوم الحساب عما تفعلون . قدره الله الذي أتقن كل شيء . وجاء به في مواعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ; ليؤدي دوره في سنة الخلق عن حكمة وتدبير ; وليحقق التناسق بين العمل والجزاء في الحياتين المتصلتين المتكاملتين , (صنع الله الذي أتقن كل شيء . إنه خبير بما تفعلون).

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا , فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر:

(من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون).

والأمن من هذا الفرع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنة . ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفرع الآخرة . بل أمنهم يوم يفرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

(ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار). .

وهو مشهد مفرع . وهم يكبون في النار على وجوههم . ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ !

هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ . .

فقد تنكبوا الهدى , وأشاحوا عنه بوجوههم ; فهم يجزون به كبا لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار .

الدرس الرابع: 91 - 93 خلاصة دعوة الرسول ودعوة للاختبار

وفي النهاية تجيء الإيقاعات الأخيرة: حيث يلخص الرسول [ص] دعوته ومنهجه في الدعوة ; ويكلهم إلى مصيرهم الذي يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ; ويختم بحمد الله كما بدأ , ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته , ويحاسبهم على ما يعملون:

إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها , وله كل شيء , وأمرت أن أكون من المسلمين , وأن أتلو القرآن , فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . وقل: الحمد لله , سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون . .

وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ; وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ; ثم لا يوحدون الله الذي حرّمه وأقام حياتهم كلها عليه .

فالرسول [ص] يقوم العقيدة كما ينبغي أن تقوم , فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

الذي حرّمها , لا شريك له ; ويكمل التصور الإسلامي للألوهية الواحدة , فرب هذه البلدة هو رب كل شيء في الوجود (وله كل شيء) ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين . المسلمين كل ما فيهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعيل الممتد في الزمن المتطاوّل من الموحدّين المستسلمين .

هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهي تلاوة القرآن:

(وأن أتلو القرآن). .

فالقرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده الغناء فى جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها , وعلى المشاعر طرقها ; وفيه ما يزلزل القلوب الجاسية وبهزها هذا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة , وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن , والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها . . (وأن أتلو القرآن) . .

(فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه . ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين) . .

وفي هذا تتمثل فردية التبعة في ميزان الله , فيما يختص بالهدى والضلال . وفي فردية التبعة تتمثل كرامة هذا الإنسان , التي يضمنها الإسلام , فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما هي تلاوة القرآن , وتركه يعمل عمله في النفوس , وفق منهجه الدقيق العميق , الذي يخاطب الفطرة في أعماقها , وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن .

(وقل: الحمد لله) مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله:

(سيركم آياته فتعرفونها) . .

وصدق الله . ففي كل يوم يري عباده بعض آياته في الأنفس والآفاق . ويكشف لهم عن بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار

(وما ربك بغافل عما تعملون) . .

وهكذا يلقي إليهم في الختام هذا الإيقاع الأخير , في هذا التعبير الملفوف . اللطيف . المخيف . . ثم يدعهم يعملون ما يعملون , وفي أنفسهم أثر الإيقاع العميق: (وما ربك بغافل عما تعملون) . .